الشهامة في حب الوطن

طرفةٌ سرّيّة بقلم المعلم الفاضل يوسف ابي سليمان

في آخر الحرب العبوس التي استعرت نارها ما بين الفرنسيس والألمان سنة ١٨٧٠ لمّا كبا زندُ الفرنسويين وولّى أمرهم اقبلت فرقةٌ عظيمةٌ شعواء من العساكر الفرنساوية الى قرية من مقاطعة لورّان (Lorraine) وكانت قد انحازت عن العدوّ وهي تسعى جهدها في الانضمام الى معظم الجيش الذي تخّت عنهُ وانفصلت . الّا انّ كثرة الآجام والغابات في تلك الاراضي قد حالت دون مرامهم وسدّت في وجوههم المسالك والمذاهب فارتعدت لذلك فرائصهم فضلًا عمّا كان يعتريهم من الخوف والذعر لعدم معرفتهم بقوّات الالمان ومراقبهم . فايقنوا من ذلك بوقوع الواقعة وترول النازلة

وما وطئت طليعتهم ارض القرية المرقومة حتى اوقف القائد كامب الفرنسي عسكرهُ خارج البلدة واستدعى من هناك أُولي الامر فوجد أنّ السُّكان وعمّال الحكومة قد أخلوها مرتحلين عنها فلم يبقَ فيها سوى راعي النفوس (الخوري) يقوم بخدمة العجزة الذين لا قدرةَ لهم على الفرار ولا طاقة لهم بمشقاته الشاقة

فما عتم إذن أن اقبل الكاهن وكان اسمهُ بونتاك (Pontac) على القائد فرآهُ يحدّقُ الى خارطةٍ صغيرةٍ بيدهِ ليتبيّن تلك الاراضي ويعرف ما فيها من المخادم والمخارج . غيرَ ان صغر الخارطة وما فيها من النقص في رسم الامكنة قد جعل القائد مرتبكًا لا يرى لهُ في امرهِ وجهًا يسلكهُ ولا نهجًا يهتدي اليهِ

فلمّا حضر الكاهن نظرَ اليهِ القائد نظرةَ يأسٍ خائب الامل لما التمحهُ في هيئتهِ من السذاجة فظنّهُ غير اهل للقيام بما كانت تنتدبهُ اليهِ مخاطر الحرب وطوارئها

وكان الكاهن ينيفُ على السبعين من عمرهِ وكانَ قصير القامة بادنًا شديد البنية أغلبَ أوقصَ . ذا وجه منتفخ ويدين وارمتين . ورجلين منعولتين بعداسٍ خشن . يتوكّأ على عصاهُ كأنّهُ كلما قام وكع . فقال للقائد : لا تؤاخذني أنا مصابٌ بداء النقرس واني كما تراني من أحقر الناس واذلهم

واما القائد الذي كان من النباهة والفطنة بمكان فحدّق الى الكاهن ولم يلبث ان توسم فيهِ حذقًا وذكاء . فانّهُ كان ذا عينين . صغيرتين برّاقتين . أوطف . بفم يفترُّ

افتراز الظرافة والدهاء. وهيئةٍ رويّةٍ تدلّ على كرم النفس وسلامة القلب. وذلك ما جعل القائد يرى فيه وجلًا ذكيًّا عبقريًّا حرًّا

وكان القائدُ في عنفوان شبابهِ غيرَ ان الحرب اتعبتهُ واضنكتهُ. فقعدَ على صفّةٍ وامامهُ دكّةٌ صغيرةٌ على قارعة الطريق الكبرى. فأجلس الكاهن الى جنبهِ والخارطة الصغيرة على مرأى منهما. ثمّ إن القائد قال وهو يتبسم استخفافًا بصاحبهِ: ها إني عازمٌ على عقد مشورةٍ بيني وبينك فيركلٌ منا في الحرب رأيهُ

فمدَّ الكاهن يدهُ الى جيبهِ واخذَ علبة السعوط ففتحها على مهلٍ ثمّ نشقَ نشقةً عظيمةً فقال جذلًا مسرورًا:

« بودّي ايُّها القائدُ لو أنّني أذكرك بأنَّ التاريخ يُرينا في كل عهدٍ ان كنيسة المسيح أثارت مشورات حكام الارض بآرائها الصائبة ونصائحها الصادقة وانها هدَتْ القوّاد والعساكر الى صراطٍ مستقيم. . . لكنا نحن في موقفٍ حرج. فهات ما عندك في الامر: ما غرضك مولاي؟ من اين انت آتٍ؟ والى اين انت ذاهب؟ أقائمٌ أنتَ للحربِ ام قاعدٌ عنها؟ »

فاجابهُ القائد على كل هذه الاسئلة وقد ركن اليه واطمأنَّ. فاخذَ الكاهن آنئذٍ قلم رصاص ورسم على الخارطة خطوطًا فقالَ للقائد:

« انَّ بينكم وبين العدوّ مرحلةٌ بل مرحلةٌ ونصف مرحلةٍ فلا يدرككم قبل صباح غدٍ. وعسكرك لغبٌ جائعٌ فان رأى القائد أن يدعهُ يريح يومهُ هذا فليفعل. والحذر الحذر من الاستراحة داخل القرية فانها تحدقُ بها التلالُ والآكام ووراء الاكمةِ ما وراءها. ولكن على خمسة اميالٍ من القرية هضبة مستديرةٌ يكتنفها النهر حتى يكاد يجعلها شبهَ جزيرةٍ وهي كثيرة الآكام ملتفّة الاشجار. فهناك تكونون في مأمنٍ من كلّ غائلة

ثمَّ انَّ العدوَّ إن تبع اثركم لا يسلك الطريق اللاحب الذي هو اطول من المقرب (القادومية) لأنهُ لا بدَّ لهُ حينئذٍ من أن يعبر الجسر كما رأيتَ. والبروسيان لا يجسرون على قطع الجسر مخافةَ ان يسقط بهم لو عبروهُ. وعليهِ فأراهم سيتحازون عن الطريق المطروقة ويجتازون في هذه الغابة التي ترى (واشار الى حرجةٍ قريبة من هناك) فلا يبلغون هذا المكان حتى صباح غدٍ

« على اني اعدكم الوعد الصادق ان طلائع العدوّ لا تطلع علينا حتى تسمعوا دقّ الجرس في كنيستي دقًا متواترًا. وحينئذٍ ينصرف العشرون او الثلاثون جنديًا الذين تبقيهم في الضيعة من غير ان يطلقوا بنادقهم طلقًا واحدًا . ولا يكون انصرافهم في معظم الطريق بل في مضيق أدلّهم عليهِ لئلا يهتدي العدوّ الى موقعكم . اما انتم فعليكم ايضًا ان تعدلوا عن الطريق العظمى وتسيروا بيمنٍ الى الشمال من حيث ترون الفندق المعروف بفندق « الفرس الاشهب » وهكذا تأمنون من شرّ الطغاة ويفرق بين القومين النهر الذي لا مخاضة ولا معبر لهُ بتةً . وتحجبكم عنه الابصار تلالٌ وآكامٌ فلا يراكم احدٌ سحابةَ يومكم حتى تبلغوا معسكر الجيش الذي تقصدونهُ

« وها انا ادلك على بعض بيوت القرية فتجد فيها ما يضمن لك قوت عسكرك وسائر لوازمهِ . فانا أقيد كل ما تأخذونهُ وتعطيني أنت بهِ وصولًا موقعًا بامضائك. ولكن ارجو منك في ذلك تمام النظام ورعايةَ الحرمة لمقتنى الغير . فجميع السكان يساعدون على مصروف الجيش كلٌّ بحسب استطاعته . فإنهُ أفرضٌ واجب علينا أن نقوم بمعاش من يناضلون عنّا ويحمونا من غارات العدوّ . هذا وهل يليق بنا أن نضنّ على اصحابنا . الآن بما سيحرمناه العدوّ غدًا نهبًا وسلبًا ؟ »

ثمّ انّهُ وقف غير طويل ثمّ قال وهو يستعطُ السعوط الطيب :

« هلمّ الان مولاي مُر لي باربعة انفارٍ من الصناديد الاشداء فيكون اثنان منهم في قبّة الجرس كقيمين يرقبان الآفاق ويتنبهانها . واكنُ انا والاثنان الآخران في مدخل القرية قرب المعبد العتيق فنكون نحن ثلاثتنا طلائعَ الجيش نوافيكم بالاخبار عن حركات العدوّ . هلمّ اختر لي جنديين يكون لهما جلدٌ وصبرٌ على برد الليل ودفع سنّة الكرى . أعطني جنديين بطلين منجّذين حنكتهما التجارب . فإنهُ لا علم لي ولا دراية بما سيكون من امرنا هذه الليلة »

قال القائد : بحياتي ايها السيد لا اعدمكَ الّا بطلًا

فقهقه الكاهن قهقهةً عظيمةً فاستعان بعلبة السعوط فقال وهو يستعط من سعوطهِ الطيب :

« ان في مصفّ دُعاة الدين ابطالًا لا عددَ لهم كما انّ في الثُكن أبطالًا معدودين

وشتّان ما بين هؤلاء واولئك . . . ولكن ما لنا وهذا الحديث . افتعجب ايها القائد من حبّنا للوطن او ليس حبُّ الوطن من الايمان »

فمدَّ لهُ القائد يدَ المصافحة مشعرًا باكرامهِ وجعل يرمقهُ بعين الاعتبار . فتبسم الكاهن تبسُّمَ رجل طيّب السريرة سليم الطويّة ثمَّ قال:

« متى اصدرتَ اوامرك ونال كل جندي نصيبهُ من الاكل والراحة أذهبُ بك الى منزلي فتجدُ هناك عُجّةً طيّبةً وفرُّوجًا مقليًّا وخمرًا رحيقًا فنجتمع على الطعام تأكيدًا للمودّة والانس »

قال ثمَّ انطلق يتوكّأ على عصًا من خيزران قد ورثها عن سالفهِ تذكرةً ثمينةً

ثمَّ ارخى الليل سدولهُ فطال وقوس بردهُ قرسًا . وكنت ترى تحت صُفَّةٍ او سقيفةٍ من عيدان الشجر تقوم على اربعة اعمدة لا جدران لها ثلاثة يتلطَّون على العدو خلف حزمٍ من قضبان الزَّرجون وكلُّهم آذانٌ واعيةٌ صاغيةٌ الى اقل حركة وهم يضربون بابصارهم نحو كل جهةٍ . فكانوا ينتظرون العدوّ في هجعات الليل والعسكر نيامٌ . وكان اثنان من الكمناء في غلواء الشباب من اشدّ الرُماة بأسًا واسرعهم إطلاقًا راضطهم رميًا يستند كلٌّ منهما الى بندقيتهِ . اما الثالث فكان اشيبَ مجلّلًا متجلببًا بجلباب اسود وبيدهِ ناقوس المذبح وكان يرقب العدوّ عن بُعد ليدقَّ جرسهُ اذا ما شاهد البرسيان مقبلين وتلك علامة لذينك الرَّاصدين في القبَّة ليدقّا الجرس الكبير دقًّا عنيفًا متواترًا إيقاظًا لسائر العسكر

وكان في السقيفة سكوتٌ عظيم لا يسمع فيهِ سوى ركز الكاهن الشيخ الذي كان يصلي الى الله صلاةً خاشعة حارَّة . ففي الهجعة الثالثة من الليل قال احد الراميَين: لا ارى هؤلاء الاجلاف يأتون الينا هذه الليلة . فحريٌّ بنا ان نفرَّ من هنا او نؤوب الى قومنا

ولم تمضِ بضع دقائق حتى وضع الكاهن شمالهُ على كتف الجندي واشار لهُ بيمينهِ الى موضع في اقصى الغابة لا يراهُ الّا الذي منحهُ الله بَصر زرقاء اليمامة . فانهُ على مسافةٍ قريبةٍ من تلك السقيفة كانت خميلةٌ واسعةٌ تحيطُ بجهاتها الاربع اشجار باسقةٌ وتعرف عند اهل تلك البلدة بغابة المين . يذهبون اليها في مخرفٍ يصلح لمرور

المركبات. إنما ذلك الطريق اللاحب كان ليلتئذٍ فارغاً من المارّة يتمكن البصر الجيّدُ من رؤيته حتى أقصاه

غير أنهُ لم يكُ يلوحُ للجنديين غير اشجارٍ لا حركةَ لها وادغالٍ يتلاعب فيها نسيم الصبح فيُسمع لها حفيفٌ خفيفٌ لطيفٌ

وما زالا يحدّقانِ الى ذلك الموضع وهما لا يريان ما يرى الى ان كلمهما الكاهن هما:

— ألا تنظران جيش العدوّ؟ صعِدا فيهم البصر وصوّبا... ألا انهم ماشون وراء جذول السنديان متسترين... لقد وقفوا ليسمعوا...

الرامي الاول: — لستُ ارى شيئاً

الرامي الثاني: — ولا انا ارى شيئاً

الكاهن: — انهم يتجمعون واوشكوا ان ينقضّوا علينا

— ها إنّ قائدَهم يكلّمهم همساً

— لقد آن أنْ الدقّ.. فها انا داقٌّ بناقوسي هذا تنبيهاً لقومنا.. امّا انتما ايها الغزيزان فانسلّا من هنا وتواريا عن ابصارهم بحفظ الله

الراميان سويةً: — بابي أنتَ وأمي! ماذا يحلُّ بك لو تركتناك عرضةً للهلاك؟ لا لا إنّا والله لنمكثنّ ولنمنعنّك مما تمنعُ منهُ انفسنا حتى تفنى ارواحنا!

الكاهن: — ولداي! ما انا الّا هرمٌ قريبٌ من شفا الرمس راجٍ من الله في وجهي هذا خيرًا... وامّا انتما فعليكما بالرضوخ لامر القائد الذي يأمركما بالانصراف اليهِ عند قرع هذه الجريسة. فاطيعاهُ ولا تخالفا لهُ امرًا وها أنا لكما مباركٌ فاذهبا بسلام

قال فقرع جريستهُ قرعاً سريعاً عنيفاً ولم يكن كارتداد الطرف حتى اجابهُ قرع الجرس الكبير بالمثل

وللحال أطلقت البنادق وسقطت القنابل وعلت الصيحات وأُصليت نارٌ حاميةٌ سدّ دخانُ بارودها الفضاء حتى خُيل ان نارًا جهنّميّة تلتهم ذلك الحرج التهاماً

فسجدَ كاهن الله على الحضيض ثمّ رسم اشارة الصليب فصلى لربّهِ هذه الصلاة: «ابانا الذي في السماوات...» فاصابتهُ رصاصة فسقط

اما السريّة الفرنساويّة ففرّت في المضيق الذي اشار اليه الكاهن في الامس فبلغت معسكر اللواء عند العشاء ولم تخسر وقتئذٍ من رجالها رجلًا واحدًا

ولمّا ان ضمّ القائد فرقتهُ الى سائر العساكر اخبر اميرَ اللواء بكلّ ما جرى لهُ مع الكاهن فقال الامير آسفًا: « يا لهُ من كاهن بطل لقد ذهب شهيد الوفاء فله والحبّ للوطن »

على انّ الكاهن لم يكن قد أُصيب بغير جرح خفيف لا يُخشى فيهِ من خطر. فنقلهُ الألمان على عجلة الى معسكرهم ثمّ احضروهُ مجلسًا حربيًّا فحكموا عليهِ بالاعدام جزاء خيانتهِ للعساكر الالمانيّة. غير انهم عدلوا عن قتلهِ حرمةً لجلال السن والكبر فقضوا بحبسهِ مؤبدًا

فلمّا قِيد الى المانية اتفق انهُ التقى بالقائد الذي كان يزعم ان الكاهن الغيور قد مات قتيل الشهامة والمروّة. فدنا منهُ فقال ضاحكًا: كيف وجدت عجّتي ؟ فعرفهُ القائد واجاب على فورٍ وعيناه مغرورقتان بالدموع: « سيدي ما انت الّا بطل ». ثمّ وثب كلٌّ منهما على عُنق صاحبهِ فتعانقا طويلًا »

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الشام (تابع)

٤ المطابع في بيروت

٤ (المطبعة السوريّة) هي المطبعة الرابعة التي أُنشئت في بيروت كان تاريخ إنشائها سنة ١٨٥٧ بهمّة صاحب السعادة والشاعر المجيد خليل افندي الخوري مدير المطبوعات سابقًا. وكانت الغاية الاولى من انشائها إصدار جريدة لولاية سوريّة وكان هذا المشروع يقتضي في تلك الأيام عزيمةً كبرى ونفقات طائلة غير انّ هذه الاعتبارات ما كانت لتثبّط جناب منشئها عن العمل. فقام بهذا المشروع واصدر جريدتهُ الاسبوعيّة المعروفة بحديقة الاخبار جعلتها الحكومة السنيّة جريدتها الرسميّة. وهي اول جريدة عربية ظهرت في بلاد الشام بل وفي غيرها من البلاد العثمانيّة الّا جريدة تركيّة صدرت